مجلة مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة

العدد السادس رجب - رمضان ١٤٢٤ هـ سبتمبر - نوفمبر ٢٠٠٣ م

- حامية المدينة المنورة وثورة الشريف حسين
- تقاليد الخدمة والشعائر في المسجد النبوي عام ١٢٠٦ هـ/١٧٩١ م
- واجهات المباني التقليدية بالمدينة المنورة : دراسة في التجانس المعماري
- رحلة جوزيف بيتس إلى الحجاز عام ١٠٩١ هـ/١٦٨٠ م
- أثر العادات الغذائية في البنية الجسدية للشباب

طلاب وطالبات المعهد الصحي بالمدينة المنورة نموذجاً

(رحلة جوزيف بيتس إلى الحجاز)

أ. صالح بن محمد المطيري
محاضر بكلية التقنية في المدينة

مقدمة ترجع أهمية هذه الرحلة إلى كونها مبكرة - نوعا ما - بالمقارنة بغيرها ، فقد جاء هذا الرحالة إلى مكة والمدينة حوالي سنة ١٦٨٠ م ، الموافقة لسنة ١٠٩١ هجرية ، ويعتبر ثاني أوروبي يزور الحجاز بعد الإيطالي (دي فارتيما) ، الذي سبقه بالمجيء بأكثر من قرن ونصف من الزمان. لكن رغم ذلك ؛ فإن رحلة (بيتس) تتميز بإعطائنا تفاصيل أكثر عن الأماكن والمدن التي يزورها ، إضافة إلى عنايته بشعائر الحج ومناسكه ، وكل ذلك بتفصيل أكثر من سابقه دي فارتيما ، والذي يُذكر عنه عنايته بذكر الأشياء التي تبدو غريبة من وجهة نظره ، وإغفال كثير من تفاصيل المكان الذي يمر به . والشيء الأخير الذي يتميز به بيتس عن جميع الرحالة الذين زاروا الحجاز هو صغر السن ؛ إذ لم يكمل العشرين حين قيامه برحلته ، إضافة - طبعا - إلى قصته العجيبة التي ساقته في النهاية إلى الرحلة إلى مصر ومكة والمدينة .

ولد جوزيف بيتس في (إكسون) بانجلترا حوالي عام ١٦٦٣م، ولما أصبح يافعًا في الخامسة عشرة من العمر ساقته رغبة ملحة لمعرفة العالم من حوله إلى مغادرة انجلترا في سنة ١٦٧٨م ، فعمل بحارًا على متن إحدى السفن ، وكان العصر عصر جهاد بحري بين المسلمين ؛ من ترك ومغاربة و (موريسكيين)[1] من جهة ، وبين الأوروبيين من جهة أخرى ، فوقع (بيتس) أسيرًا أثناء ذلك الصراع في يد أحد البحارة الجزائريين ، الذي اتخذه عبدًا . وكان سيده رجلاً رقيقَ الدين ومسرفًا على نفسه ، إلا أنه بعد بضع سنين تاب عن سيرته هذه ،

(١) وهم بقايا مسلمي الاندلس .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقرر أن يحج ويكفِّر عن آثامه ، فدعا عبده الإنجليزي إلى الإسلام ليرافقه إلى الحج ، فقَبِل العبد (ظاهريًا) الدخول في الإسلام . فرافق سيده إلى مكة ، منطلقًا في قافلة من الجزائر أبحرت في السفن عبر المتوسط إلى رشيد في مصر ، ومن ثم من السويس على البحر الأحمر إلى رابغ في الحجاز ، ومن هناك واصلت القافلة طريقها بحرًا إلى جدة ، ومنها إلى مكة ، وبعد انتهاء مناسك الحج زارت المدينة . ثم عادت القافلة برًا إلى مصر ، ومن هناك إلى الجزائر . وبعد العودة للجزائر قضى (بيتس) سنين عديدة هناك جعلته أكثر إلمامًا بأحوال المسلمين وبلادهم. بعدها فكر (بيتس) بالهرب من الجزائر والعودة إلى وطنه انجلترا ، فاستغل فرصة طلب السلطان العثماني لعدد من السفن من الجزائر ، فسُمح لبيتس بالركوب على إحداها ، وهناك في تركيا تردد الرحالة بين العودة لوطنه الأصلي وبين البقاء في ديار الإسلام ، لكنه في النهاية غلّب العودة إلى وطنه ، فأعانه أحد التجار الإنجليز وساعده في الذهاب إلى : (جنوة) ، ومنها تجول في أوروبا وانتهى بعودته إلى وطنه الأم (انجلترا) .

بداية رحلة بيتس إلى الحجاز مرورًا بمصر

يتحدث (بيتس) بالتفصيل عن رحلته للحج ، فيقول بأن قافلة الحج الجزائرية - التي انضم إليها مع سيده - استقلت سفينة إلى ميناء الإسكندرية بمصر ، فوصلوها في غضون ثلاثين أو أربعين يومًا ، ثم يستغرق في ذكر بعض أحوال الناس في مصر آنذاك وما مر به من أشياء أثارت فضوله ، سواء مما يتعلق بالإنسان أو المكان ، فمن ذلك أنه أبحر عبر النيل من رشيد إلى القاهرة ، فلاحظ أن مصب النيل عند رشيد قد تنتظر عنده السفن عشرة أيام لا تتمكن من دخوله بسبب تراكم الرمال التي يجرفها النيل معه في جريانه نحو البحر . وتحدث عن حدوث أعمال نهب لمراكب الحجاج العابرة في النيل وأن اللصوص يعرفون وقت قدومهم . ثم أفاض في الكلام عن مجتمع القاهرة في ذلك الوقت ؛ كأجناس الناس هناك ولباسهم

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بعض عجائب مصر التي رآها بيتس

وطباعهم ، ومن الأشياء التي أثارت فضوله سوق الجواري في القاهرة وحرية الزبون في تقليب الرقيق كيفما شاء قبل الشراء ، سواء أكان الرقيق ذكرًا أم أنثى، وطريقة تفقيس الكتاتيت بوضعها في حفر تحت حرارة الشمس ، وانخفاض الأسعار ، وعمليات الغش التجاري وعقابه الذي يتضمن مصادرة البضاعة والضرب بـ(الفلكة) على القدمين ، إضافة إلى حديثه عن أحوال طبقات العالم السفلي في المجتمع ذاك ، كالمحتالين والنشالين ، وبنات البغاء ، والذي اشتكى من فشوه في ذلك الوقت ، كما تحدث عن طبقة الطواشية ، وهم خصيان مُعدون للخدمة في البيوت والقصور .

بعد ذلك تركت القافلة مصر وأبحرت في البحر الأحمر من ميناء السويس ، التي يعز فيها الماء العذب ، فيشترى بالدراهم. ويصف الرحالة مخاطر الإبحار في البحر الأحمر وأنه غير آمن، وذلك « بسبب كثرة الصخور التي ما تكاد تنتهي من رؤية بعضها حتى ترى بعضها الآخر » ، وأن تلك الصخور كان ترى بوضوح من السطح. وقد مرت السفينة بقبر هناك عليه مقام للشيخ (المرابط) ، وأن أحد ملاحي السفينة جمع من الحجاج صدقات وهبات لصالح ذلك المقام ، ويقول بأنه يعتقد بأن الملاحين كانوا في الحقيقة يجمعون المال لأنفسهم هم ، مستغلين مرور السفينة بمقام : (المرابط) .

مشاعر الحجاج الجياشة عند رؤية الكعبة المشرفة

بعد ذلك وصلت القافلة بحرًا إلى رابغ ، وفيه نزل الحجاج من السفن وارتدوا ملابس الإحرام ثم توجهوا بالسفينة إلى جدة . وفيها تلقَّى القافلة جمع من الأدلاء ، الذين سيعلِّمون الحاج كيفية أداء الحج ، ثم توجهوا إلى مكة ، وهناك يصف (بيتس) مشاعر الحجاج الجياشة بعد أن قضوا شهورًا في رحلة شاقة إلى البيت الحرام ، وكيف قرت أعينهم في النهاية بمرأى الكعبة المشرفة ، وكيف أنهم فاضت عيونهم بالدمع لما رأوها .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويصف الناس في مكة بأنهم نحيلون جدًا ويعتريهم الهزال . وأن الحرارة فيها شديدة ، مما يجعل الناس ينامون على أسطح منازلهم في الليل ، وأنه اضطر للنوم في السطح ، فاحتاج دفعًا للحر إلى أن يُبلل غطاءه بالماء مرتين أو أكثر طوال الليل. ويصف الذين شاهدهم في مكة ، فيصف طائفة (الدروايش) الذين« يعيشون حياة الزهد ويقطعون المنطقة من أقصاها لأدناها ، ويعيشون على صدقات الآخرين ، ويلبسون عباءات صوفية وغطاء رأس أبيض طويل مرتفع [أي قلنسوة] ، ويضعون على ظهورهم فروة خروف أو جلد عنز ليتخذوها فراشًا للنوم وأكمامهم عريضة.. ومعهم مسابح يحملونها حول أعناقهم أو حول أذرعهم » ، وذكر أن كثيرًا من المسلمين إذا أراد أن يُصلح حاله ويتوب عن ماضيه فإنه ينخرط في سلك (الدروشة) ، كما فعل أخو سيده الذي كان يحيا « حياة فاحشة لاهية » قبل أن ينضم إلى تلك الفئة .

وصف بيتس للكعبة المشرفة والمسجد الحرام

ويمضي (بيتس) في وصف مكة ، فيتكلم عن الكعبة وغسيلها وفتحها للحجاج ، وكيف أنه لا يمكن المكوث بها إلا لوقت قليل ؛نظرًا لكثرة المنتظرين ، وأنه رأى كتابات في داخلها ، غير أنه لم يكن له الوقت الكافي لقراءتها ، **ويصف الكعبة وما حولها وصفًا تفصيليًا** ، ويذكر أنه أثناء غسيلها بماء زمزم كان الحجاج يتجمعون تحت الباب لتلقى ذلك الماء الخارج من الكعبة لاعتقادهم ببركته ، ويتحدث عن صحن المسجد الحرام ، ويقول بأن فيه غُرفًا ومقامات لأئمة الصلوات الراتبة من المذاهب الأربعة ، **ويلاحظ أن تلك المذاهب متفقة في الأسس** ، وأنه ليس بينها إلا «اختلافات شكلية » ، وإتمامًا لوصفه للصحن فإنه عمل خريطة مفصلة ، تعتبر أول خريطة للمسجد الحرام من صنيع الرحالة. كما يتحدث عن زمزم ، وكان مما لاحظه أن الحجاج كانوا يستخدمون ماءها للشرب والاغتسال ، ولكن ليس في أغراض الطهارة المباشرة ، حيث يستخدمون ماءًا آخر .

وصف الموقف المهيب في عرفات

ويصف (بيتس) الموقف المهيب في عرفات ، ويقول وهو الرحالة الأوروبي المتستر بالإسلام بأنه « **مشهد يخلب اللب حقًا أن ترى هذه الآلاف المؤلفة من الناس في لباس التواضع والتجرد من ملذات الدنيا ، برؤوسهم العارية وقد بللت الدموع وجناتهم ، وأن تسمع تضرعاتهم طالبين الصفح والغفران لبدء حياة جديدة**...»

.

ويشعر بالأسف إذ يقارن ذلك الموقف المجتمِع المؤتلِف بالخلافات الكثيرة بين قومه المسيحيين .

... والقافلة تسير نحو المدينة

ويمضي (بيتس) في وصف بقية مناسك الحج إلى نهاية المناسك ، واستعداد القافلة للرحيل للمدينة المنورة ، فيذكر أنه حدث هرج ومرج في البداية عندما أراد كل حاج حجز مكانه في القافلة ، وقبل مسيرها للمدينة ربطت الجمال ببعضها على شكل قطار ، وزودت بأجراس يظن الجمالون أن رنينها يشجع الركايب على السير . ويقول بأن معظم المسير كان في الليل ، وذلك لشدة الحر ، **ويذكر أن مندوبي السلطان كانوا يقدمون الماء مجانًا لفقراء القافلة** ، لكن يظل الماء والحصول عليه مشكلة ؛ إذ يذكر أنه ربما ساروا يومين أو ثلاثة من غير أن يصادفوا ماءًا على الطريق ، وكما هو متوقع ، تصادف القافلة وهي تسير في بوادي العرب مشكلة مع اللصوص ؛ إذ يتسلل هؤلاء والقافلة تسير ليلاً فيأتون للحاج النائم فيحل أحد اللصوص حبال البعير وعليه راكبه ويخرجه من قطار القافلة ، فيما يقوم لص آخر بتوصيل حبال القطار كما كانت من قبل ، لتظل القافلة تسير من غير أن تكتشف السرقة ، وبعد الاستيلاء على البعير فإنهم - في أحسن الأحوال - يسلبون ما عند راكبه « ويتركونه يعود للقافلة عاريا » .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المدينة المنورة في عيون بيتس

وبعد عشرة أيام تصل القافلة إلى المدينة ، ويصف بيتس المدينة بقوله : « والمدينة ليست إلا بلدة بائسة يحيطها سور » ، وربما عنى بذلك صغر حجمها قياسا إلى مكة ، ويضيف : « وبها مسجد كبير لكنه لا يقارن بالحرم المكي ، وفي أحد أركانه مبنى مساحته حوالي أربع عشرة أو خمس عشرة خطوة مربعة ، به نوافذ ضخمة مغطاة بشبك نحاسي » ، ولا بد أن يكون هذا المبنى هو الحجرة النبوية ، ويضيف « وداخل هذا المبنى مصابيح وزينات ، وهو مقنطر arched ... » ، وذكر أنه يوجد فيه عدد من المصابيح قدَّرها بمئة ، وأنه لا يسمح للحجاج بالدخول إليه ، وإنما الدخول مقصور على فئة :الأغوات (الطواشية) ، ومهمتهم الإشراف على المكان وتنظيفه ، وإيقاد مصابيحه. ويذكر (بيتس) قبور خلفاء الرسول ﷺ ، لكن من الغريب أنه يذكر أنه رأى قبرًا تم إعداده لعيسى بن مريم عندما يعود في آخر الدنيا .

وبالنسبة لتجارة المدينة ، فقد ذكر الرحالة أن المؤن في المدينة تأتي من الحبشة في سفن محملة بالقمح عبر البحر الأحمر.

ومن المدينة ، غادر الرحالة مع قافلته برًا إلى مصر، عبر الطريق المحاذي لساحل البحر الأحمر، ويذكر أنه في أحد المحطات ، توقفت القافلة فقابلوا جمعًا من البدو ، قدَّموا لهم (أي للقافلة) كميات وافرة من الفاكهة خاصة الزبيب ، ولا يدري من أين أتوا بها ، لكن يبدو أنهم توقفوا بجوار إحدى القرى أو الواحات التي تكثر فيها زراعة الفواكه . ومن المشاكل التي ذكرها في مسيرهم هذا عقبة شديدة الانحدار ، يقول : « وصلنا لجبل شديد الانحدار يسمى (عقبة) ، عادة ما يهاب الحجاج تسلقه ، وقد تعبت الجمال البائسة عند اجتيازه ، وسقط كثير منها هناك ، ... فَرُحنا نحثها على المسير ، لكنها كانت تتحرك ببطء شديد ، بل وتتوقف غالبا ... ولما وصلنا للقمة لم نر إلا سهلاً » .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تصل قافلة الحج إلى مصر (القاهرة) ، وهناك يستقبلها آلاف الأهلين ، وهم مبتهجين بعودة الحجاج ، ويذكر أن الرحلة من مكة إلى القاهرة استغرقت أربعين يومًا ، فيها ثلاثة أيام توقف ، وعن ذلك يقول « وطوال الطريق [أي في بلاد العرب] لم نر زروعًا خضراء إلا نادرًا ، و لا سمعنا تغريد طير ، ولا رأينا حيوانًا .. فلا شيء سوى الصحراء والحجارة ، باستثناء قرية اجتزناها ليلاً كان بها بعض الأشجار والبساتين » .

طريق العودة وما فيه من بلاء !

وتُنزل القافلة المصرية حجاجها في مصر ، فيما يواصل الحجاج الجزائريون - وفيهم (بيتس) - رحلتهم إلى الوطن الجزائر عبر ميناء الإسكندرية ، لكن لم تكد تصل القافلة إلى الإسكندرية لتستقل سفينة جزائرية ؛ حتى تفاجأ ببلاء داهم قد استقر في المدينة وبسط رداءه عليها .. ألا وهو : الطاعون ، يقول « صعد إلى ظهر السفينة معنا بعض الأشخاص المصابين بالطاعون ، فسرى الطاعون بيننا ، وقد شفي بعض ممن أصيبوا ، وألقينا في البحر عشرين جثة ممن ماتوا بسببه » . ويذكر أن مرض الطاعون أنهكه بمجرد وصوله إلى الجزائر ، وخرجت به دمامل كثيرة احتار في معالجتها ... وأن الله منَّ عليه بالشفاء بعد أن فُتحت تلك الدمامل وعولجت من قبل سيده ، وأنه لن ينسى فضل سيده أبدًا .

وعند خبر عودته وشفائه في الجزائر ينتهي نص الرحلة .

تلك هي رحله (جوزيف بيتس) ، الصبي الإنجليزي ، الذي حج ضمن قافلة الحج الجزائرية ، بصفته عبدًا مملوكًا لأحد أفرادها .

وقبيل الختام أود إيراد جملة من النقاط ، مما قد يلاحظه القارئ في ثنايا الرحلة ، وبعض هذه النقاط أشار إليها المترجم في المقدمة ، فمن ذلك أن الرحالة يستخدم كلمة (تركي) ليعني (مسلم) كقوله (اقترب تركي مني) (رأيت تركيًا يفعل كذا) ، أو كلمة (Moors) لتعني أيضا مسلمين ، وربما كانت

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

هذه من سمات الكتابات الغربية في ذلك العصر ، في فترة بروز القوى العثمانية في شرق المتوسط ، والمغربية في غربه، كما يستخدم الرحالة كلمات تركية لتسمية الأشياء مثل (jamjamya) أي خف غير مخيط ، و (shaiqa) (أي نوع من السفن) ، و (Byram) أي عيد الأضحى ، إضافة إلى كلمات أسبانية مثل (Grand Seinior) بمعنى السيد الأعظم ، أي السلطان العثماني ، و (renegado) أي (مرتد عن دينه)، وغيرها .

وعلى مستوى تفهم الشعائر الإسلامية ؛ يجب ملاحظة أن الرحالة بصفته أسيرًا إنجليزيا تم استرقاقه لم يكن مؤمنًا في دخيلة نفسه بالإسلام ، لذا فإنه قد يسيء فهم بعض الشعائر الإسلامية ، مثل وصفه لحماس الحجاج عند رؤيتهم الكعبة بأنه (حماس أعمى ووثني) ص ٤٥ وص ٤٦ ، ومثل أنه نظر إلى جماعة قد جلسوا يسبِّحون بمسابحهم في صحن المسجد ، فظنَّ أنهم في لعبة ، فانخرط معهم فيها .

هذا العرض مستفاد من كتاب (رحلة جوزيف بيتس إلى مصر ومكة والمدينة) صدر ضمن سلسلة الألف كتاب الثاني التي تصدر في مصر، وترجمه عن أصله الإنجليزي د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، ويذكر أن العنوان الأصلي للكتاب في الإنجليزية هو : (وصف صحيح لدين المحمديين وطبائعهم ، مع حج إلى مكة ، ووصف للمدينة) . ويرجع طول هذا العنوان إلى العرف السائد في عصر المؤلف - القرن السابع عشر الميلادي .

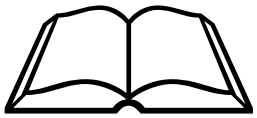

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة